الباب الثّالث

فى التّاريخ

(١١)

محاور مهمة

مرّت أمّة العرب بعد الإسلام بتاريخ حافل بالعلوّ والهبوط، وكان وطنهم ساحة لصراعات كثيرة داخليّة وخارجيّة.

ونجد لزاما التّوقّف بإيجاز شديد عند بعض المفاصل والأزمات، والّتى نظنّ أنّها بمفاعيلها كانت حاسمة فى صنع التّاريخ بعد ذلك.

وليس بمقدورنا إحصاء المسيرة وما بها من عبر ودروس. إذ لسنا بصدد دراسة منهجيّة للتّاريخ ولا حتّى لتاريخ فترة بعينها إذ نلتزم بطبيعة هذا الكتاب، وأنّه خواطر كتبت باسترسال ومن الذّاكرة فى معظمها.

وحسبنا من هذا التّنبيه، والإشارة لعلّ ذلك ينفع النّشأ والمهتمين، ويحفّزهم على المراجعة كلّ بقدر ما يطيق.

(١٢)

عهد النّبوة

جاءت الرّسالة الخاتمة، والعالم كلّه ينتظرها، وفى أمسّ الحاجّة لها.

فجزيرة العرب قبائل متنافسة متناحرة وقد دَرسَتْ فيها حنيفيّة إبراهيم عليه السلام وسيطرت الجاهليّة وعبادة الأصنام، وبنو إسرائيل أعملوا تحريفا وإخفاءً لحقيقة ما أُنزل عليهم، والنّصرانيّة انتهت إلى تأليه المسيح عليه السلام، وما تبع ذلك من بدع وانحراف، والقياصرة والأكاسرة تحكّموا فى رقاب العباد. فمنهم من ألّه نفسه، ومنهم من أنزل ذاته منزلة الإله! وقد قسّموا الأمم إلى شريفة ووضيعة وسادة وبرابرة.

وأصبح استعباد النّاس رفعة،والعدوان شرعة، والكِبْرُ مكرمة، والظّلم حزما، والعلوّ فى الأرض غاية.

ثمّ جاء الهدى الخاتم، فهدم ما أفسد النّاس، وأرسى مبادئ الحرّيّة والكرامة والمساواة، والأخوّة الإنسانيّة يقرّ بها، ولا يختلف عليها ذوو الفطر السّويّة من البشر جميعا من آمن منهم برسالة محمّد ﷺ، ومن لم يؤمن فكان من هدى الرّسالة الخاتمة ما يلى:

١ - **جاءت الرّسالة بالتّوحيد الخالص:** لا خالق إلّا الله، ولا رازق إلّا الله، ولا عبادة إلّا لله، ولا عبوديّة إلّا لله وهو العدل الحقّ الكريم الرّحمن الرّحيم العفوّ الغفور اللّطيف بعباده له الأسماء الحسنى، والصّفات العلا، وهو غنىّ عن العالمين.

كلّ القلوب شاخصة إليه وحده لا إله إلّا هو، لا فضل لأحد على أحد إلّا بالعمل الصّالح، لا جبريّة فى المجد والكرامة، والباب على مصراعيه لكلّ بعمله ولا أوزار عليه من عمل آبائه أو أصولهم أو أجناسهم أو ألوانهم.

فمحمّد ﷺ سيّد بنى آدم.. عمّه أبو لهب المغضوب عليه فى النّار، وكلاهما من عشيرة واحدة فرّقتهم أعمالهم ليس إلّا!

٢ - **القطع بكرامة النّاس جميعا:** فقد كرّم الله الإنسان قبل الأديان حيث آدم طينة وماء. وقبل أن تنفخ فيه الرّوح إذ قال عزّ من قائل: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٢٩).

فنفى بذلك كلّ الفلسفات والعقائد الّتى تحطّ من قدر بنى البشر لضعفهم وموتهم.

٣ - **ساوى بين البشر جميعا:** بأجناسهم وألوانهم وأصولهم ومشاربهم، وذكّر بأخوّتهم وبنوّتهم لأب واحد وأم واحدة إذ قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات١٣.

فنفى بذلك كلّ عنصريّة واستعلاء بجنس أو لون، وبيّن أنّ المجد الحقّ والرّفعة والكرامة كلّ متاح لكلّ فرد يحصّله بعمله، ولا جبريّة فى ذلك يفرضها إرث لون أو جنس أو عمل آباء وأجداد.

٤ - **بيّن للنّاس أنّ سبب التّكريم لآدم وبنيه فى هبة الحرّيّة والعلم والتّكليف الّتى وهبها** الله له إذ قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (البقرة٣٠ – ٣٨).

ونرى أنّ الآيات الكريمة التّسع السّابقة توجز المشهد كلّه! أصل الإنسان وموقعه من الخلق ومواهبه ومهمّته ومصيره، ومن حكمها ومعانيها ما يلى:

٤ – ١ – أخبر الله الملائكة أنّ مشيئته وقعت لإبداع مخلوق جديد حرّ يستطيع الإفساد والإصلاح فى آن، ويكون خليفة فى الأرض أى سيّد مخلوقاتها.

٤ – ٢ – أبدت الملائكة مخاوفها من قضيّة الحرّيّة وإمكان الإفساد وسفك الدّماء.

٤ – ٣ – أخبرهم سبحانه وتعالى أنّ للقصّة بقيّة ! وأنّ هذا المخلوق الجديد وُهب القدرة – بالحرّيّة أيضا – على إبداع العلم وتوريثه (الأسماء كلّها!) وأنّ قضيّة الإفساد الّتى تجلبها الحرّيّة هى جزء من مجمل الصّورة ليس إلّا، ويواجهها الوعد والوعيد الّذى ينزل من السّماء فيتفاعل ذلك مع حرّيّة المخلوق الجديد، ومن ثمّ يختار مصيره بنفسه. أى إن الحريّة لها وعليها ولا معنى للطّاعة بدونها.

٤–٤– كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنّ المخلوق الجديد، وقبل خلقه ونفخ الرّوح فيه مخصّص للإقامة فى الأرض، والخلافة فيها، ومن ثمّ لا أصل لمن زعم أنّ سبب الهبوط من الجنّة هو خطيئة آدم وقصة الشّجرة. الخطيئة الّتى لاحقت نسل آدم حسب بعض العقائد – ومنها النّصرانيّة – وحتّى قدوم المسيح عليه السلام.

٤–٥– كما بيّنت الآيات فى مضمونها المجمل أنّ إقامة آدم القصيرة فى الجنّة كانت للتّعليم والتّدريب والتّجريب عمليّا من أنّ إبليس عدوّه الأبدىّ، ومن ثمّ عليه الحذر والحيطة منه فى حياته على الأرض الّتى خلق لها.

٤ – ٦ – كما بيّنت أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يمدّ المكلّفين فى الأرض بالهدى والنّور. فمن اتّبع الحقّ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٤ – ٧ – والمكلّفون فى الأرض – كما تبيّن مجمل الآيات – هم بنو آدم والجنّ – بغضّ النّظر عن كفر كبيرهم إبليس – كلّ كافر من الجنّ هو شيطان عدوّ لآدم وذرّيّته من صلح منهم.

٤ – ٨ – فأثبتت هذه الآيات الكريمة أنّ كرامة آدم أصلها الأصيل فطرة الحرّيّة، وسنّة الاختيار بين البدائل الّتى بها يحوز العلم ويكشف أسراره، ويُعمر الأرض به (الأسماء كلّها) وإذ اعتزت الملائكة بتسخيرها لتسبيح الله وتقديسه، فبيّن لها عزّ وجلّ أنّ المخلوق الجديد حقيق بالتّكريم حيث إنّه حرّ يقدّس الله ويسبّحه إن شاء، وهذا أوزن عند الله ممّن سخّر لذلك تسخيرا لا خيار له فيه !

وإنّى لأعجب – متواضعا – كيف أنّ علماءنا العظام لم يجعلوا الحرّيّة أولى الضّرورات الشّرعيّة دون منازع؟! وهى أوّل فطرة وهبها الله لآدم وأثارت ما أثارت من مخاوف لدى الملائكة. ألأنّها تفتح الباب لصلاح وفساد؟ ولم لا؟ وقد أثير الأمر ذاته من الملائكة عند الخلق الأوّل، ولم يقرّهم الله عليه!

٥ – أرشد الاجتماع الإنسانىّ لما يصلحه، حيث شرع منظومة قيّمية، وأخلاقيّة شاملة ثابتة لا تمسّ، ولا تتغيّر سارية على كلّ النّاس من آمن، ومن لم يؤمن.

فأمر بالشّورى فى كلّ الولايات، وشرع حرمة الدّماء والأموال والأعراض لكلّ النّاس، وكفل حرّيّة العقائد والأديان، وحرّم العدوان، وأرسى العدل دون تمييز، وأمر بإنفاذ العهود والعقود كما أمر بالتّضامن فى الاقتصاد والمعاش كما حرّم الرّبا وقدّس العمل فى طلب الرّزق وجعله عبادة حقّة يؤجر المرء عليها أكثر من عبادات الشّعائر إن احتسب، وجعل السّلام شعار المسلم كما جعل الأسرة عماد المجتمع ولبنته الأولى قائمة على أحكام محكمة طاهرة من الزّواج وبناء بيت الزّوجيّة وتربيّة الأبناء والمواريث وصلة الأرحام. وأباح الزّواج من الكتابيّة، ومن فى حكمها إشارة للوحدة الإنسانيّة، وتثبيتا لسنّة التّراحم والتّعاون بين كلّ النّاس.

٦ – كما أغلق الإسلام أبوابا فى الجدل والتّنازع بين النّاس ومنها:

٦ – ١ – المرأة وحكمها ودورها:

فـكان فى الكتاب فصل الخطاب: النّسـاء شـقائق الرّجال، ولهنّ مثـل الّذى عليهنّ بالمعـروف، وحكم المـرأة فى أمّهات الأمور وغيرها هو ذات حكـم الرّجل: فلها أن تملك وترث – ملاحظة: معظم الدّول المتقدّمة فى أوربا شـرعت حقّ الملكيّة للمرأة منذ مائة عام فقـط!– وتختار زوجها، وتختـار فراقه، وتختار دينها، ولها حرّيّتها التّامّة فى نفسـها ومالها وعقيدتها، وتشـير وتستشـار، وتعمل ما تختار فى مالها كما تتعلّم وتعلم، وتفتى وتسوس وتشارك فى الحياة العامّة بما تطيق، وهى حرّة سيّدة كريمة مصانة.

وكانت الآيات الكريمة – المفتاح الّذى ذكرناها فى الفقرة ٤ – (البقرة: ٣٠ – ٣٨) عامّة لبنـى آدم، وحـواء من بنى آدم فهى وهبت ذات المواهـب، وفطرت ذات الفطر من حرّيّة وكرامة، وعلم وتكليف، ولا يحتجّ بأعمال بعض النّاس لجهل أو غفلة أو عصيان فأعمالهم حجّة عليهم وليس على الدّين.

٦ – ٢ – الخطيئة الأولى، وخروج آدم وزوجه من الجنّة:

وعـودة إلى ما بيّنّاه فى الفقـرة ٤– ومعانى الآيات الكريمة (البقرة٣٠ – ٣٨) حيث إنّ آدم خُلق أصلا بإرادة الخالق السّـابقة لتسـويته لكى يكون خليفة فى الأرض (البقرة ٣٠) ليس إلّا.

ومـا كان من إقامته فى الجنّة قليلا لمحض التّفهيم والتّعليم، وأنّ إبليس ومن يكفر من الجنّ عدوٌّ له.

ومِن سـابقِ علمِ اللهِ وإرادَتِه أنّ آدم سـوف يخطئ، ويستغفر ويتوب، فيغفر الله له، ثم جعل الله سـبحانَه وتعالى هذه الواقعة سـنّة جارية فى عبادة آدم وذرّيّته له على الأرض أن يخطـئ ويسـتغفر ويتوب، قال ﷺ: «كلّ ابن آدم خطاء، وخـير الخطّائين التّوّابون» (الترمذى ٤٢٥١ ابن ماجه ٤٢٤١).

وأمّا ما نسـجه أقوام لاحقا على هذا الأمر من خيالات، وخرافات فهى محض ابتداع ليـس إلّا. فمنهـم من رمى المرأة بهذا الإثم وأنّها غوت آدم، ومن ثمّ أخرجته، ونسـله من الجنّة. ولذا جعلوها أصل كلّ بلاء بل جعلوها شيطانا يمشى على قدمين. سبحان الله! بل صنعت أقوام من ذلك دينا لها حيث زعمت أنّ الله بعث من يخلّص البشريّة من خطيئتها الأولى الّتـى اقترفها آدم وزوجه فقط! ثمّ حمل كبرهـا أيضا كلّ ذرّيّتهم! يا للهول! كيف ولم؟! وما ذنب الذّرّيّة الّتى لم تكن حاضرة الإثم؟! أين المنطق فى هذا؟!

والفصل فى هذا أنّ الله قدّر قبل خلق آدم أنّ مقامة الأرض خليفة يعمرها. وقدّر سبحانه لـه التّعليـم والتّفهيم فى الجنّة ثم أنفذ القدر الأوّل أن أهبطـه إلى الأرض. ولا يليق بعاقل مؤمن أن يصوّر الأمر وكأن آدم بخطيئته ألزم ربّه – حاشـا وكلا – أن يهبطه إلى الأرض بعد أن كان سيخلد فى الجنّة.

٦–٣– بيّن الإسـلام فصل الخطاب فيما الطّيّب وما الخبيث: وقد خلطت أقوام من البشر فى هذا الكثير. إذ صوّر بعضهم أنّ كلّ مادىّ دنىء، وكلّ معنوىّ روحىّ نزيه ورفيع. ففضّ الإسلام النّزاع وبيّن أنّ الخبائث تشمل بعض الموادّ المحرّم أكلها وشربها لذاتها أو لفسـادها كما تشـمل الكثير من المعنوىّ فى الأفكار والعقائـد المنحرفة، والطّيّبات تشمل كلّ المواد ما عدا الخبيث منها، والعقائد والأفكار الطّيّبة ما أمر به الله أو سكت عنه الوحى.

والواقـع أنّ هدى القرآن ينعى ويذمّ بالتّواتر فسـاد الأفكار والنّفوس والعقائد عشـرات أضعاف هديه فى بيان الفاسد من الموجودات المادّيّة.

كما بيّن الوحى أنّ موجودات الكون جميعا تسبّح لله، ولا يشذّ عن ذلك إلّا بعض النّاس بخيارهم، وإنفاذهم لحرّيّتهم الّتى وهبها الله لأبيهم آدم عند خلقه، ولم يستثنِ الوحى من سنّة التّسبيح هذه حتّى أشدّ الحيوانات بعدا عن النّفس السّويّة كالحيّة والعقرب والخنزير مثلاً.

قال تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء ٤٤.

وقال تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الحشر ٢٤.

وأمّـا المتأفّفون مـن المادّة – وهى واقعا كلّ ما يحيط بالإنسـان فى الكون من جمادات ومخلوقـات – ومـن يظنّ أنّ التّعاطى معها شـرّ لا بدّ منه، فلا مـكان لظنّهم فى المفهوم الإسـلامىّ. بـل ما جاء به الإسـلام أنّ المـادّة، وموجودات الكون نعمـة أنعمها الله على الإنسـان، وسـخّرها وطوّعها له، وأمره أن يكشف أسرارها، ويسبر أغوارها، ويوظّفها فى معاشـه فى الدّنيـا كما يرفق بها. ويحفظها من التّلف، ولـه الأجر من الله على ذلك فى الدّنيا والآخرة إن احتسب.

٦ – ٤ – كما جاءت رسـالة الإسـلام تكليفا للثّقلين معا من إنس وجنّ، ومن ثمّ وحدت التّلقىّ والصّراط المستقيم لعنصرى الوجود من المكلّفين.

فـلا مجال – مـع هذا – لضلال بحديث نفس، أو رؤية أو منام أو خيال أو وسوسـة أو سـحر صنعه الجنّ يخالف الشّـرع إذ الإنس والجنّ مكلّفان بذات الرسالة، وما خالفها لا مشروعيّة له أيّا كان مصدره سواء فى يقظة أو منام أو تضليل أو هذيان، والمقياس الوحيد الثّابت الخالد هو عقائد وشرائع الرّسالة الخاتمة.

٦ – ٥ – جاءت الرّسالة الخاتمة بفصل الخطاب فى عدل الله المطلق، وذلك بعقيدة اليوم الآخر، حيث يُقام الميزان ويصفّى الحساب.

فمـن عمـل صالحا فله أجره فى الدّنيا أو الآخرة أو كلتاهما معا، وكذا من عمل شـرّا، ومن ثمّ لا مكان لحسرة فى الدّنيا على ضياع عمل خير أو إفلات مجرم من عقاب فتصفية الحساب عدلا تتمّ فى الآخرة.

قـال تعـالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ الزلزلة ٧، ٨.

٦ – ٦ – جاءت الرّسالة بفصل الخطاب فى الإرادة الإنسانيّة، وبيّنت أنّ الإنسان حرّ فى أشياء، ومن ثمّ محاسب على اختياره فيها قسطا وعدلا.

وهو مسـخّر فى أشـياء، ومن ثمّ معذور فى أمرها ما صلحت نيّته. ومن ثمّ فضّت النّزاع بين الفلسـفات الّتى غالت على حدى الحقيقة، فمنها من جعل الإنسان إلها على الأرض لا حدود لإرادته، ومنها من جعله ريشه تتقاذفها الرّيح فى يوم عاصف ولا إرادة له.

٦ – ٧ – جاءت الرّسالة الخاتمة بفصل الخطاب فى معنى ومفهوم العبادة. فجعلت حياة المؤمن كلّها عبادة إن احتسب.

فالشّـعائر الرّاتبـة المعروفة عبادة، وكلّ فعل أو عمل فيه منفعـة للنّفس أو للغير عبادة ولذا وحدت الفهم والمنحى والتّوجّه والحركة الإنسـانيّة كلّها، وجعلتها لله سبحانه وتعالى جميعا.

قال تعـالى آمـرا إبراهيـم عليه السلام ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ ﴾ الأنعام ١٦٢.

وقد يصلح ويفيد أن نسـمّى الشّعائر الرّاتبة، والأذكار: عبادة الذّكر، وما عداها: عبادة الفكر والعمل.

ولا غـرو فلا رهبانيّة فى الإسـلام ونحـن رهبانيّتنا – بعد ما فرض علينا، وسـنّ لنا من عبادات راتبة – كلّ أعمالنا فى شـؤون الدّنيا حـلالا طيّبا ننتفع بها، وننفع النّاس،

ونحتسبها عند الله. لا حاجة لنا أن نحبس أجسادنا في صوامع ومُغَرٍ نتعبّد فيها بالرّواتب والأذكار، ومن ثمّ نأكل من كدّ غيرنا، ولا نسهم فيما كلّفنا به من إعمار الأرض.

قال ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» (البخارى ٢٠٧٢).

٦ – ٨ – جاءت بفصل الخطاب فى متع الجسد فى الأكل والشّرب، والملبس، والجماع: فالإسلام شرع ذلك حلالا طيّبا. إذ فطر الله ابن آدم على ذلك، وليس من الدّين ولا الحكمة تعذيب الجسد، وحرمانه ممّا فطر عليه، وأمّا تنظيمه فنعم.

ولا فضل لمن خالف بل آثم فى ذلك. قال تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ البقرة ١٨٥.

وقال ﷺ: «أما والله إنّى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنّى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوّج النّساء فمن رغب عن سنّتى فليس منّى» (البخارى ٥٠٦٣).

٧ – جاءت الرّسالة بفصل الخطاب فى طرق الوصول إلى الحقيقة، ورشدت وقوّمت نظريات المعرفة المتصارعة ومنها وطقوسها الغنوص والحدس والتّأمّل والرّؤى فى المنام والتنّجيم والنّفث فى الرّوع والملاحظة والوصف والمجاهدة والعرافة والسّحر، وبيّنت أنّ العلم له بابان فقط:

(أ) السّمع: أى التّلقّى من وحى صادق من الله سبحانه.

(ب) العقل والحواسّ والتّجربة العمليّة.

ومن ثمّ أمرت الرّسالة الخاتمة بالبعد عن الرجم بالغيب، ونهت عن البحث فى ذات الله وقياسا كلّ غيب مطلق ليس له منفذ ينفذ منه العقل بالحس والتّجربة ،ودعت أن نقصر علمنا فى هذا على السّمع وحده كما نصّ عليه الكتاب دون زيادة أو نقصان. ومن ثم أراحت العقول العاقلة، والقلوب الواعية من فساد الجدل، وتبديد الأوقات والجهود فيما لا طائل ورائه ،وأرست أيضا وضمنا منهجا قيّما لكشف العلوم بالفكر والنّظر العقلى والحسّ والتّجربة أخذ به المسلمون فى بناء حضارتهم ، ثمّ اقتبسه الغرب منهم، وكان ما كان من نهضته وتقدّمه بعد تحرّره من جدل الفلسفات القديمة، ونظريات المعرفة الفاسدة.

يقول (روجيه جارودى) فى كتابه «نحو حرب دينيّة؟ جدل العصر» (١٨: ص ٤٨): «من السّخف أن يقال، مثلا، إنّ الإسلام من حيث المبدأ عدوّ للعلم أو التّسامح الدّينىّ.

محترفوا السّياسة الّذين يجهلون كلّ شيء عن ماضي ثقافتهم الخاصّة هم وحدهم الّذين يمكن أن يعلنوا أنّ فرنسا لن تكون متعدّدة الثّقافات، وكأنّ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ليست جزءا من ثقافتنا الغربيّة. ونسمع غالبا من يقول: إنّ لهذه الثّقافة مصدرين المصدر اليونانيّ الرّومانيّ، والمصدر اليهوديّ المسيحيّ. وفي ذلك نسيان للتّراث العربيّ الإسلاميّ».

إنّ الّذي يعتبر بحقّ مُدخل العلم التّجريبيّ إلى أوربا، الرّاهب الإنجليزيّ «روجيه باكون» يعترف بتواضع في كتابه «المجموعة الكبرى» أنّه تعلّم كلّ شيء فيه من مدرسة قرطبة الإسلاميّة، وهو يستشهد دائما بكتاب «المنّاظر» لابن الهيثم المصريّ الّذي أعطى أوّل مثال لهذا المنهج «افتراض فرضيّة رياضيّة ثمّ إعداد عدّة تجريبيّة للتّحقق منها أو الطّعن فيها».

ونزيد على ما قاله «جارودي» أعلاه: إنّ المصدر اليونانيّ الرّومانيّ الّذي ذكره هو تلميذ للفينيقيّين الكنعانيّين العرب الّذين سبقوه في الحضارة بعشرات القرون قبل ميلاد المسيح عليه السلام كما سبق البيان في الفصل (٧).

٨ – كما بينت الرّسالة الخاتمة أنّ الله حافظ وحيه الخاتم من الضّياع والتّحريف، والزّيادة والنّقصان إلى يوم الدّين ولم يوكل الله – رحمة منه – سبحانه ذلك للنّاس. إذ هو الحجّة الخالدة على بني آدم جميعا في كلّ القادم من الأيّام إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر ٩.

ومن ثمّ لا حجّة على الله، ولا عذر لباحث عن الحقّ، فالرّسالة موجودة بكلّ تفاصيلها كما نزلت على نبيّها بل تعهّدها العلماء العاملون بالبيان والشّرح لاحقا، وعليه تمّ توحيد مصدر التّلقي والهدى للبشريّة جميعا وحتّى يوم الدّين.

٩ – ولذا حفظت رسالة الإسلام للإنسان توازنه الفطريّ بين مادّة وروح، وبين متع الدّنيا والتّطلّع إلى الآخرة، وجعلت الكلّ لله في يسر دون آصار.

قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف ١٥٧.

وبعد: كانت رسالة الإسلام هى الخاتمة، وآخر هدى السّماء لأهل الأرض وهى التّامّة.

قال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة ٣.

وقال تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ الأنعام ٣٨.

وبرغم أنّ واقعنا – نحن المسلمين – اليوم لا يتّسق مع هدى ديننا فإنه يحقّ لنا أن نعتزّ بهذا الدّين الخاتم المتين الكامل، الّذى – وبفضل الله – لم يترك أمرا فيه صلاح الدّنيا، ونعيم الآخرة إلا جاء به إمّا تفصيلا وإمّا إشارة. وأمر العمل به وسبر أغواره.

وأىّ دين – فيما هو معروف من عقائد اليوم – بيّن ما بيّنه الإسلام من قضايا الحياة والوجود والخلق وما أمر به من فضائل وأخلاق، وما شرعه من أحكام، وأنزله من حِكم؟!

إنّنا نخال البشريّة اليوم فى اضطرابها ونزاعها وإصابة أخلاقها وجشعها وفقدانها بوصلة الصّواب تكاد تحاكى عالم ما قبل محمّد ﷺ مباشرة.

فالتّاريخ يعيد نفسه، ولكن فى السّمات المحوريّة، والمنطلقات الكبرى، وليس فى القوالب والأشكال.

فالعرب متفرّقون متنازعون قلبا وقالبا، وحالهم من الهوان والضّعف نسبة لما حولهم لا يخفى على أحد، وهمّهم الأوّل الجمع، ولذة الجسد.

أليست هذه هى ذات سماتهم ومجتمعهم. ومحاور تخلّفهم قبل البعثة الخاتمة؟!

كما أنّ ما حولهم من قوى ظالمة مستكبرة جعلت همّها تراكم السّلاح والمال، وتعظيم الاستهلاك والإنتاج – استبدلت توحيد الله بوحدانيّة السّوق كما يقول روجيه جارودى! (١٣) تتعنصر على ما عداها. أفسدت الأرض، وما فيها من تربة وماء وهواء. كما أفسدت الأبدان والأرواح حيث أفسدت جليل القيم، والأخلاق.

كتب روجيه جارودى فى (١٣ – ص ٢٧): «أصبح ممكنا اليوم أن نسترجع مسار النمط الغربى للتنمية منذ أن وقع الخطأ القاتل فى توجيه ما سمى بعصر النهضة. أى نمو حضارة الكم والتفكير الذرائعى والديكارتيه وديانة الثروة ، بعد أن فصلت عن البعد الأول للعقل وهو التأمل فى الغايات النهائية للحياة ومعناها».

فالدّين اسم لا روح فيه، أوامره، ونواهيه لا قيمة لها ومن تراث الماضى، والحرّيّة – تاج كرامة الإنسان – نهبا لفوضى اللّذات وإنفلات المجتمعات. ودورة الإنتاج والاستهلاك

والسّـوق هى سـيّد الأسياد جميعا، تشرع بها، ولها كلّ الأبواب، وقبل كلّ قيمة من خُلُق أو عدل أو حرّيّة أو دين أو إنسانيّة.

والحـقّ والعدل اسـتبدلا فى علاقات النّاس بالمصلحة أيّـا كانت منزلتها فى الاعتبار، وجوهرها ما يعظّم جمع المال والعلوّ فى الأرض بأىّ وسيلة أو حيلة.

أليست هذه هى السّمات الكبرى فى الإمبراطوريات قبل بعثة محمّد ﷺ!

قـال تعـالى ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الروم ٤١.

ونحن أملنا فى «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» هذه العبارة المنزلة من ربّ السّـماوات والأرض العليم الخبير القوىّ القادر.

فهل لنا أن نحلم بدورة جديدة. دورة رحمة ومودّة وإخاء ورخاء تجدّد النّظر فى رسالة الرّحمـة وتأخذ بها طريقا لسـعادة الدّارين، وتعين العرب وغيرهم من مسـلمى اليوم على أنفسهم، وعلى قوى الشّرّ فى عالمنا. وليس ذلك على الله بعزيز.

فالرّسالة الخاتمة ليست ملكا للعرب، ولا لمسلمى اليوم، بل ملكا وملاذا سرمديّا للبشريّة جميعا.

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الأنبياء ١٠٧.

وقـال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ سبأ ٢٨.

ونبىّ الرّسـالة محمّد ﷺ هو ابن آدم، ورحم كلّ إنسـان على هذه الأرض، ولعلّ هذا التّجديد يؤسّس له، ويرعاه من هم من بنى الأحمر أو الأصفر أو الأسود! ومن يدرى؟!

وكلمة للمسـلمين والعرب فى هذا الزّمان: أليـس طلب المجد بالحقّ عزّة، وكرامة فى الدّنيا والآخرة؟! والجواب بلى.

فأيـن الطّريق إلى ذلك من هذا الهـوان والضّعف، والفوضى المادّيّة والذّهنيّة الّتى نعانى منها؟! والجواب سـهل وميسّـر لمن يسّـر الله أمره، وصحّ منه العزم... البشريّة كلّها فى حاجة لحوح إلى قيم رسـالتكم الإسـلاميّة. وهذه حقيقة موضوعيّـة تعرفها القلوب العالة المنصفة منكم، ومن غيركم.

فهـلا جدّدتم فهمكـم لهذه الرّسـالة، وجددتم اسـتلهامها، والعمل بهـا فى ذواتكم وأوطانكم، قيما إنسـانية فى الحرية والكرامة والعدل، والعلم والعمل والنّماء، ونفيتم عنها الأدعياء وأقوالهم وأعمالهم، دعاة القطيعة والانغلاق، وتجّار العداوات والعنف والاستبداد، ثمّ قدّمتموها للبشـريّة دعوة حريّة وعدل، وعلم، وعمل، ورحمة وأخوة ومساواة ونجاة فى الدّنيا والآخرة.

قال ﷺ: «يرث هذا العلم من كلّ خلف عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» (البيهقى فى سننه الكبرى ٢١٤٣٩).

والمتأمّل لهذا الحديث الشّـريف يقرأ فيه محوريّة مشكل الفهم والفكر واندرس الوضوح مع مرور الزّمن.

والمهمّـة الأولى الّتـى لا بدّ للعدول من نبهاء الأمّـة القيام بها هى تجديد الفهم والفكر، وجلاء الأصل القيّم للرّسالة.

لا أخالكم يا مسلمى اليوم ترتضون لأنفسكم فى دنياكم، وأمام ربّكم أن تواصلوا ارتكاب ثلاث موبقات عظام:

أوّلهـا: تضييع فهم الرّسالة، والتّقاعس عن تجديدها، وعدم العمل بقيمها حقّا.

وثانيهـا: تزعمـون للنّاس من غـير أهلها أنّكم بها عاملون بحالكـم الرّاهن، وأنتم – بزعمكم – سدنة الأخلاق فى هذا الزّمان.

وثالثهـا: ومـن ثمّ تكونون حجابا لها فكرا، وعملا عن النّاس لما فى حالكم من تخلّف وضياع.

روى عن الإمام جمال الدّين الأفغانىّ أنّه قال: «الإسلام محجوب بأهله».

قال تعالى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ محمد ٣٨.

ونحن ندعو الله أن لا يكون مصيركم الاستبدال بل يسخّر لكم العون على أنفسكم؛ ومن يعينكم من أهل الأرض ممّن لم يطل بهم الأمد، ولم تكِلّ قلوبهم وعقولهم.

قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف ٢١.

وقـل ﷺ: «إنّ لربّكـم فى زمانكـم نفحات فتعرّضوا لهـا» (الطبرانـى فى الكبير ١٩: ٥١٩).

(١٣)

الخلافة الرّاشدة

بدأت الخلافة الرّاشـدة بعهد أبى بكر الصّديق ﷺ حيث تمّ كبت الرّدّة فى الأعراب، وحمى ﷺ بيضة الإسلام الوليد من تمرّد جاهلىّ خطير كاد يعصف بدولة الإسلام الجديدة.

ولسنا هنا بصدد مناقب أبى بكر ﷺ، ولا بعضها فهذا الدّفتر المتواضع لا يتّسع لذلك، ولكنّا نذكّر بمبادئ الحكم الّتى أرساها ﷺ متأسّيا برسول الله.

قـال فى أوّل خطبـة. وفى تواضع فريـد : «وُلّيت عليكم ولسـت بخيركم. أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن أحسنت فأعينونى، وإن أخطأت فقوّمونى».

هذا الرّجل الّذى نشـأ بسـيطا فـى بيئة متواضعة قاحلة خالية مـن خبرة إدارة الدّول والممالك، أرسى المبادئ التّالية فى سياسة الحكم الإسلامى:

١ – «إنّكم اخترتمونى إلّا أنّنى لسـت أفضلكم لا نسـبا ولا حكمة أما شـرعيّتى فى الحكم فهى من اختياركم لى، وإرادتكم أن أتولّى هذا المكان، كما أثبت هنا أنّنى لست أفضلكم والأفضل لا يعلمه إلّا الله سـبحانه وتعـالى وحده. ومن ثمّ قال الحقّ ونزع من قلوب الكثيرين التوجّس والغبطة».

ولنا ملاحظـة: ربط الولاية بالأفضليّة المطلقة يجعلها مسـتحيلة التّحقيق، ومحلّ نزاع لا ينتهى، إذ هذه لا يعلمها إلّا الله. وإن كانت تتحقّق فى نظر الكثيرين بإجماع معظم النّاس وقبولهـم. إذا رجعنـا ثانية لاختيار النّاس لزاما، والنّاس فـرادى وأغلبيّة وإجماع لا يعلمون الغيب، وقد يكون أفضل النّاس زاهد حكيم فى صومعة فى البرارى فكيف لنا به ليتولّى أمرنا.

وقول أبى بكر ﷺ: «لست بخيركم» هذه لا تعنى أنّ هناك من هو أفضل منه فهو قطعا لا يعلـم الغيـب أى كان بل تعنى أنّه لا يدرى! وأنّ أمـر الأفضليّة المطلقة ليس أصلا فى الولاية بل الأصل هو اختيار النّاس ورضاهم

٢ – «أطيعونـى ما أطعت الله فيكـم»: أى أطلب منكم الطّاعة إذا قمت بحقّ أمانة الحكم تجاهكم أى أحسنت فى شؤون الولاية والحكم، وإدارة المصالح المشتركة للمجتمع الّتى ولّيتمونى إيّاها. وهذا مقياس محكم فى عبارة وجيزة.

إنّ العـبرة فـى تقييم الحاكم هو حفظـه للمصالح المعتبرة العامّـة للنّاس حيث موضوع ولايته، ومناط مؤسّسات الحكم كافّة. ونقيض ذلك أن لا طاعة لمن لم يقم بأمانة الولاية وإن صام وصلّى وأمر النّاس بذلك.

٣ - «فإن أحسنت فأعينونى»:

أى أن شرط التّأييد، والمؤازرة للحاكم من قبل شعبه هو إحسانه فى القيام بأمانة الحكم ليس إلّا. ولا تجوز مؤازرة الحاكم وتأييده والالتفاف حوله إلّا إذا كان على هذا الحال دون سواه.

إنّ ذلك فى نقيض ما نراه من مستبدى هذا الزّمان، وكذا أسلافهم من الجبّارين حيث يلتفّ حولهم جمع غفير من المنافقين، والغافلين، وأصحاب الغايات والمصالح والوجاهات، وحتّى بعض العلماء! وإن سُئل أحدهم عن صنيعه هذا قال: إنّه حاكم البلاد، ورمزها ولعلّ الله يصلحه، ويصلح به؛ والكمال لله وحده! وما لنا وإثارة الفتن! وهكذا دواليك من الأعذار الفارغة، ومن ثمّ يضلّل العامّة؛ ويتمّ السّكوت على الباطل، وتذهب الرّؤية الواضحة ويختلط الحقّ بالباطل ويستأسد المستبدّ وقد رأى رقص النّاس له وتزلّفهم فى حضرته، ووجد من يلاقيه بغاية التّبجيل والتّقريظ، ويسبغ عليه الألقاب من كلّ حدب وصوب، ومن أثقل العبارات، ويفضى هذا كلّه إلى استخفاف المستبدّ بالنّاس.

قال تعالى ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الزخرف٥٤.

«وإن أخطأت فقوّمونى»:

ومبدأ جليل فى الحكم! ألا وهو المتابعة، والمراقبة والمحاسبة من قبل العامّة والخاصّة وذلك لإيداء الحاكم لمهامّه، ومدى إحسانه فيها، وبلغة العصر رقابة مجلس النّوّاب أو الشّيوخ على أداء الحاكم والحكومة.

فمهمّة الحكم تكليف بعمل يتعلّق بمصالح النّاس جميعا والأمّة، هى السّيّدة على الحاكم وغيره ولها بل واجبها إنفاذ هذه السّيادة والولاية على الحاكم وجهازه وذلك بمن يمثّلها أو بجمهورها عند اللّزوم إن وجدت انحرافا عن الجادّة.. وليس أن يُرى الحاكم وقد جنّد المستفيدين والأتباع، وأحسن تسليحهم ورشوتهم ثمّ صادر إرادة الأمّة وسيادتها، وجعل من قوله وعمله وما يراه أيّا كانت منزلته من الخطأ والصّواب قولا قريبا من المعصوم، وعمله لا يأتيه الباطل والويل لمن يرى غير ما يرى.

إنّ المقولة البسيطة، والعبارات الموجزة الّتى وردت فى أوّل خطبة للخليفة الرّاشد الأوّل تمثّل جوهر نظام الشّورى فى الحكم الإسلامى:

اختيار حرّ للحاكم يرعى مصالح الأمّة كما أمر الله وعقد الأمّة معه فإن أحسن وجبت له المؤازرة، وإن أخطأ وجب تقويمه من الأمّة السّيّدة صاحبة الشّأن.

لو صحّت النّيّة والعزم، وأُعمل الفكر، ونُسج لهذه المبادئ من الآليات والوسائل والنّظم والإدارات ما يؤطّرها ويضبط تطبيقها في العصر الرّاهن لنتج عن ذلك مؤسّسات للحكم كاملة متكاملة وشوريّة ديمقراطيّة بها آليات الاختيار، والصّلاحيات والمهام للحاكم وغيره، وطرق تقويم الأداء وتنظيم النّقد والنّصيحة والتّوجيه، وفرز الرّؤى والآراء، ومؤسّسات المؤازرة ودعم العمل الوطنيّ العامّ، ودور الجمهور فيه، وكذا آليات الرّقابة والمتابعة والتّصحيح والتّقنين... كلّ ذلك - ثقتنا - أن يخرج بالفكر الفعّال من هذه العبارة البسيطة الّتي قالها من تتلمذ في مدرسة النّبوة، وشاء الله أن يكون أوّل الخلفاء.

ثمّ جاء عهد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ فسار على ذات النّهج الّذي كان عليه سلفه أبو بكر ﷺ وإن كان لكلٍّ شخصيّته وسجاياه وعاشت الأمّة أزهى أيّامها وأمجدها، سلام كامل وعدل شامل. زمان شرّفه الله بالإسلام، وشرّف الإسلام به حيث قدّم الإسلام للبشريّة أحسن تقديم.

إسلام العدل والرّحمة والحرّيّة. وبقي النّاس في مشارق الأرض ومغاربها العدوّ والصّديق والمكابر والمؤازر لا يسعه إلّا أن يقرّ بفضل عمر، وعدل عمر ﷺ حتى يومنا هذا !

ثمّ جاء عهد ذي النّورين - عثمان بن عفان - ﷺ المبشّر بالجنّة من جهّز جيش العسرة.. ازدهرت في عهده الدّعوة والفتوح بيد الأبطال الميامين من الصّحابة والتّابعين كما ازدهر العمران، وسارت الأمصار في بدايات بناء حضارة الإسلام علما وإعمارا، وتحقيقا وضبطا، ثمّ كان ما كان من صدام النّزعات والسّجايا والسّمات النّفسيّة.. فقوم يرون أنّ دولة الإسلام الواسعة والّتي ضمّت أجناسا وأقواما شتى، لا بد لها أن تبقى في تفاصيلها بطهر دولة المدينة، وزهد أهلها.

وهذا مطلب وطموح رآه البعض مثاليًا أو يقرب من المستحيل.

وقوم تصالحوا مع التنوّع والسّعة والكبر، وتعاظم الأنشطة في السّياسة والعمران والتّجارة، وطرائق الحياة، وكذا تفاوت درجات التّديّن والصّلاح بين النّاس وقد انقضى عهد النّبّوة وأصبح التّابعون وتابعوهم غالبيّة المجتمع وكذلك تآلف هؤلاء مع ما تبع ذلك من تطّور أنماط الإدارة والسّياسة والسّجايا، قال عثمان ﷺ مخاطبا أبا ذرّ ﷺ «يا أبا ذرّ عليَّ أن أقضي ما علي، وآخذ ما على الرّعيّة، ولا أجبرهم على الزّهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد» (٨ - الجزء الرّابع ص ١١).

وعلى هذه المفارقة الفارقة بين حالين، وزمانين أطلّت بوادر الصّراع حيث تطوّرت الأمور في غفلة من كثيرين حتّى أدّت إلى مقتل الخليفة الرّاشد الثّالث على يد حفنة من الأغرار الغلاة في سلوكهم، وفي تقييمهم للأمور، وفي فهمهم للمصلحة الرّاجحة، والمصلحة المرجوحة.

لقد رجّح هؤلاء الأغرار الغلاة ظنونهم في مسائل جزئيّة على مصلحة الأمّة في استقرارها، وأمنها ووحدتها وكفى.

ثمّ جاء عهد عليّ بن أبي طالب ﷺ وفي وقت عاصف مضطرب، وكان ذلك بإلحاح من جمهور المسلمين، ومنهم أيضا فريق الغلاة، وفيهم من قتل عثمان ﷺ أو ظاهر على ذلك، ثمّ تمرّد معاوية، وخروجه على الحاكم الشّرعيّ، ثمّ عبرة لمن يعتبر.. الغلاة الّذين كان منهم من قتل عثمان ﷺ هم جلّ من انقلب على عليّ ﷺ لتنوّع ثانويّ في الرّأي (التّحكيم من عدمه) بل لمرض في نفوسهم ثمّ كفّروه وقتلوه بزعم ردّته حاشاه ﷺ!!

إنّهم الخوارج الّذين انقلبوا وحوشا يقتلون كلّ مسلم والى على ﷺ أو أمسك عن تكفيره!! وبلغ بهم الجنون والغرور، واستباحة الدّماء أن اجتهدوا – بزعمهم – في حكم أبناء الكفّار (أي المسلمين المخالفين لهم في الرّأي) هل يجب قتلهم قبل البلوغ أم يتركوا حتّى البلوغ حيث تقام عليهم الحجّة كما على آبائهم (هكذا)!

ورجّح كثير من كبرائهم قتلهم قبل البلوغ رحمة!! بهم وقبل أن يبلغوا. ومن ثمّ يكفروا بموالاة عليّ!! (١٤ – ص ٥٣) قالت بذلك فرقة الأزارقة منهم.

أليس هذا درسا بليغ وبيانا حاسما، وتحذيرا وإنذارا لكلّ من كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد؟!

إلّا أنّ الغلوّ والتّنطّع في الدّين آفة ماحقة أفتك بالدّين وأهله من الكفر! إذ يحمل الغالي في جوفه غرورا بالدّين وليس دينا وقلبا قاسيا فظّا حاقدا، أوغرّه شيطانه استباحة الدّماء والأعراض والأموال.

قال ﷺ: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم» (البخاري ٥٠٥٨).

وقال: ﷺ «سيخرج من ضئضئ هذا الرّجل قوم يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّميّة» (البخاري ٣٣٤٤ مسلم ١٠٦٤).

ثمّ كان لبعض من بقى مع علىّ ﷺ شؤون عجيبة، فمنهم من تبع يهوديا منافقا حاقدا هو عبد الله بن سبأ الّذى افترى على علىّ ﷺ، والإسلام فرية جللا أن ألّه الإمام – تعالى الله عــن ذلك علوًا كبيرا – ووجد من الحمقى والجهلة والحاقدين من تبعه (١٥ : الجزء ٨ ص ٢٧٣).

ومنهم من غالى فى علىّ ﷺ، وزيّنت لهم شياطينهم أنّ حبّ علىّ وآل البيت لا يكتمل إلّا بتسفيه غيره من الصّحابة كما زعموا العصمة لعلىّ، وكذا العلم بالغيب، وغير ذلك من الخرافات والمستحيلات، وفى تضادّ مع محكم القرآن والسّنّة النّبويّة،وتمّ نسج دين مبتدع بعد الخصومة السّياسيّة الفادحة بين فريقى صفّين بأكثر من قرن.

وكانــت صناعة تلك البدع تتمّ فى الكهوف والفلوات ووعر الجبال هروبا من المســتبدّ، وحقــدا عليه، ومخالفة له فيمــا يعتقد ومهما كانت التّبعات، ومهمــا كانت درجة الزّيغ والضّلال (١٥ : الجزء ٨ ص٢٧٢ – ٢٧٤).

كما أن مذهب الشيعة الإمامية يرتكز على ثلاث مقولات وهى:

١ – أن رسول الله ﷺ أوصى لعلى ﷺ بالأمر من بعده.

٢ – أن لعلى ﷺ خوارق على رأســها علمه بالغيب، وانتقل ذلك إلى أئمتهم الاثنى عشــرة من بعده.

٣ – أن مولودا لحســن العســكرى رحمه الله اسمه محمد المهدى اختفى وغاب وهو طفل ويظهر فى آخر الزمان وهو المهدى المنتظر.

ولقد فند ابن أبى الحديد المتوفى عام ٦٦٩ هـ (١٢٧٠م) وهو شيعى معتزلى هذه الركائز الثلاث فى كتابه (١٥) وذلك كما يلى:

١ – المقولــة الأولى عــن الوصية لعلى ﷺ: ورد فى (١٥) :الجزء الثانى ص ٢٦١) ما يلى:

«واعلــم أن الآثار والأخبــار فى هذا الباب كثيرة جدا، ومــن تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نص صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك، ولا تتطرق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرســول ﷺ نص على أمير المؤمنين ﷺ نصا صريحــا جليا ليــس بنص يوم الغدير، ولا خبر المنزلة، ولا ما شــابههما من الأخبار الواردة من طرق العامة وغيرها، بل نص عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين، وأمر المسلمين أن يسلموا عليه بذلك، فسلموا عليه بها، وصرح لهم فى كثير من المقامات بأنه خليفة

عليهم من بعده، وأمرهم بالسمع والطاعة له. ولا ريب أن المنصف إذا سمع ما جرى لهم بعد وفاة رسول الله ﷺ يعلم قطعا أنه لم يكن هذا النص، ولكن قد سبق إلى النفوس والعقول أنه قد كان هناك تعريض وتلويح، وكناية وقول غير صريح، وحكم غير مبتوت، ولعله ﷺ كان يصده عن التصريح بذلك أمر يعلمه، ومصلحة يراعيها، أو وقوف مع إذن الله تعالى فى ذلك.

فأما امتناع على ﷺ من البيعة حتى أخرج على الوجه الذى أخرج عليه، فقد ذكره المحدثون ورواه أهل السير وقد ذكرنا ما قاله الجوهرى فى هذا الباب، وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين، وقد ذكر غيره من هذا النحو ما لا يحصى كثرة.

فأما الأمور الشنيعة المستهجنة التى تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة ﷺ، وأنه ضربها بالسوط فصار فى عضُدها كالدملج، وبقى أثره إلى أن ماتت، وأن عمر أضغطها بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه يا رسول الله! وألقت جنينا ميتا، وجعل فى عنق على ﷺ حبلٌ يقاد به وهو يُعتل، وفاطمة خلفه تصرخ وتنادى بالويل والثبور، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان، وأن عليا لما أحضر سألوه البيعة فامتنع، فتُهدِّد بالقتل، فقال: إذن تقتلون عبد الله وأخا رسول الله! فقالوا: أما عبد الله فنعم، وأما أخو رسول الله فلا، وأنه طعن فيهم فى أوجههم بالنفاق، وسطر صحيفة الغدر التى اجتمعوا عليها، وبأنهم أرادوا أن ينفّروا ناقة رسول الله ﷺ ليلة العقبة، فكله لا أصل له عند أصحابنا. ولا يثبته أحد منهم، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه، وإنما هو شىء تنفرد الشيعة بنقله».

٢ – زعم الخوارق لعلى ﷺ وعلى رأسها علم الغيب: ورد فى (١٥ الجزء السابع ص ٣٤ – ٣٥) ما يلى: «فإن قلت: لماذا غلا الناس فى أمير المؤمنين ﷺ، فادعوا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التى شاهدوا صدقها عيانا، ولم يغلوا فى رسول الله ﷺ فيدعوا له الإلهية، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقينا، وهو كان أولى بذلك،لأنه الأصل المتبوع، ومعجزاته أعظم، وأخباره عن الغيوب أكثر؟

قلت: إن الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وشاهدوا معجزاته، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عيانا، كانوا أشد آراء، وأعظم أحلاما، وأوفر عقولا من تلك الطائفة الضعيفة العقول. السخيفة الأحلام، الذين رأوا أمير المؤمنين ﷺ فى آخر أيامه، كعبد الله بن سبأ

وأصحابه، فإنهم كانوا من ركاكة البصائر وضعفها على حال مشهورة، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفهم المعجزات، فيعتقدوا فى صاحبها أن الجوهر الإلهى قد حله، لاعتقادهم أنه لا يصح من البشر هذا إلا بالحلول، وقد قيل: إن جماعة من هؤلاء كانوا من نسل النصارى واليهود، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول فى أنبيائهم ورؤسائهم، فاعتقدوا فيه ﷺ مثل ذلك. ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم ملحدين أرادوا إدخال الإلحاد فى دين الإسلام، فذهبوا إلى ذلك، ولو كانوا فى أيام رسول الله ﷺ لقالوا فيه مثل هذه المقالة. إضلالا لأهل الإسلام، وقصدا لإيقاع الشبهة فى قلوبهم، ولم يكن فى الصحابة مثل هؤلاء، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة».

٣ – المقولة الثالثة: «ابن الحسن العسكرى الغائب المنتظر: ورد فى (١٥: الجزء السابع ص ٤٠) ما يلى:

«فإن قيل: ومن هذا الرجل الموعود به الذى قال ﷺ عنه: «بأبى ابن خيرة الإماء»؟ قيل: أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثانى عشر، وأنه ابن أمة اسمها نرجس، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمى يولد فى مستقبل الزمان، لام ولد، وليس بموجود الآن».

وابن أبى الحديد معتزلى شيعى – كما أسلفنا – وكتابه شرح نهج البلاغة (١٥) والذى يضم ٢٠ جزءا بمجموع يقارب أربعة آلاف صفحة ومطبوع فى النجف الأشرف وهو من أشمل الكتب فى فضائل الإمام على ﷺ وآثاره وحياته، وكذا ما ورد فى ذلك من أحاديث وروايات وخلاصة قوله فى أسس المذهب الاثنى عشرى، أنه ردها جميعا – كما سبق بيانه – فما قول إخواننا الاثنى عشرية؟! وهل يُكفّر؟ كما هو دأب الغُلاة!

بقى أن نقول، أن تشيع ابن أبى الحديد – وفى جوهره – هو التشيع الذى يقره مذهب أهل السنة فى الماضى والحاضر، والذى يشمل حب آل البيت، واظهار المودة لهم، والإقرار بفضل علمائهم، ماانضبط ذلك كله بما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية.

ونحن نذكّر بهذا التّاريخ ليس تحريرا لخلاف مذهبىّ فهذا ليس موضوعنا ولا هدفنا الآن. بل نبيّن – تكرارا – أفاعيل الاستبداد، وأخطبوطه الجهنّمىّ، وما جناه على الأمة من الفرقة فى الدّين والاجتماع، وما أسّس له وأشعله من حروب ونزاعات وثورات وسفك دماء.

وأزعم أن لو تمكّنت الأمّة أن تختار بحكمائها من ترتضيه محايدا بعيدا عن نزاع صفّين، وبعد مقتل عليّ ﷺ وزهد الحسن ﷺ في الحكم لحمت الأمّة ذاتها من الدّماء الّتي أريقت، والأحقاد الّتي بنيت أثناء حكم معاوية، ومن جاء بعده. ولو لم يورّث معاويّة الحكم لولده يزيد، وأوفى بما اتّفق عليه مع الحسن ﷺ أن تكون بعده شورى بين المسلمين، وترك الأمر للأمّة تختار من ترتضيه من الصّحابة والتّابعين، وبعيدا عن بيتي النّزاع السّابق لما وقعت الكارثة الكبرى بقتل الحسين ﷺ، وما تبع ذلك من بلاء ودماء ونزاع عامّ في الدّين، وغيرة اكتوت الأمّة بناره قرونا بل لم تزل تعاني منه إلى يومنا هذا.

ولكن هو الاستبداد طاعون الأمم. إذ أبى وسدنته، ومنفذي مشيئته من الملوك إلّا أن يستأثروا، ويحوزوا الأموال والنّساء، وجاه الدّنيا برغم أنف الأمّة، وفي تضاد مع مصالحها ومصالحتها مع ذاتها.

(١٤)

الاستبداد وأمراضه – عهد بني أميّة نموذجا

تقديم:

يمثّل النّظر في تاريخ العهد الأمويّ نموذجا مميّزا لما يمكن أن يسبّبه الاستبداد من اضطراب في إدارة المجتمع وذلك للأسباب التّالية:

١ – تلا ذلك العهد أيّام الرّاشدين مباشرة حيث ورث رجالا على خلق رفيع ودين متين.

٢ – تراوح رجال العهد الأمويّ بين كونهم صحابة أو تابعين أو تابعي التّابعين، وجميعهم مثل طيّب في خلقهم ودينهم، وتجرّدهم لقربهم من عهد الرّسالة (خير القرون).

٣ – كما خلا ذلك العهد المبكر من الشّعوبية، ومن الفلسفات الوافدة. والحركات الهدّامة والّتي انتشرت ونشأت فيما تلى من عصور.

٤ – كما كانت شوكة الإسلام في عنفوانها الأوّل حيث كبتت كلّ أعدائها الخارجيين.

٥ – وحتّى الأحزاب، والفرق، والمذاهب الفقهيّة، والجدل فيها لم يكن قد ظهر أو احتدّ بعد.

٦ – ومن ثمّ نرى أنّ الاستبداد ومفاعيله، والاستئثار، وتوريث الحكم – حيث حيّدنا العوامل السّالفة الذّكر – يقع عليه جلّ التّبعة فيما أصاب المجتمع الإسلاميّ من اضطراب وتناحر، وفتن وعودة للنّعرات القبليّة.

فى الموضوع: بدأ عهد بنى أميّة بتولّى معاوية الحكم حيث سار بالأمّة بما يسّر الله له. إلّا أنّ الوصول للسّلطة بالقوّة أو ما بدا كذلك لعظم المسلمين وتّر النّفوس على نطاق واسع.

فلـم تهـدأ ثورة إلّا بدأت أخرى، وكل بما هدرت من دمـاء، وراكمت من أحقاد. وأمّا القاصمـة فكانـت أن طلب معاوية الملك لابنه يزيد وهو حىّ يرزق وفى السّـلطة (٥٦ هـ)، وبعد مناورات وتهديد ووعيد تصوّر أنّه مهّد الطّريق لملك ولده. وكانت تلك المقتلة والصّدمة للشّـورى الإسـلاميّة من أكبر المصائب – نسـبة لآثارها اللّاحقة – فى تاريخ الإسلام. إذ أُعملت سنّة التّوريث فى الحكم فى مخالفة صريحة لركن الشّورى فى الشّؤون العامّة.

ولكى نتبيّن خطورة هذا الأمر القاضية على وحدة المجتمع المسلم نذكّر القارئ الكريم أنّ الإسلام بقيمه وتعاليمه كان الرّابط الاجتماعىّ القوىّ الوحيد فى تلك الدّولة الفتيّة النّاشئة. فهى متعدّدة الأقوام والثّقافات والمشارب والتّاريخ، وحديثة عهد بنعرات القبليّة. وبرغم أنّ تلـك القبائـل عربيّة فى معظمها فإنها لم تتبلور بعد فى كيان قومىّ منصهر يجعل الانتماء للعروبة وحسب رابطا إضافيا قويّا يشدّ أزر وحدة المجتمع.

والشّواهد على ذلك كثيرة فى الصّراع المرير بين قيس ويمن، وتناحر القبائل واقتتالها.

وعليه وفى ذلك النّسـيج المجتمعىّ الخاصّ كان الحدب والحفاظ على تعاليم الإسلام، وهـو الرّابط الإيمانىّ والوحيد الّذى يربط الجميع، ويوحّـد المجتمع وكذا الدّقّة فى تنفيذ تعاليمه وبالذّات فيما يخصّ الشـأن العامّ والولايات ودون هوادة هو شـرط لازم لعزّة تلك الدّولة وتقدّمها، وكذلك شرط محورىّ لوجودها وبقائها أصلا.

والحال كذلك لم يكن مقبولا لقوم أو قبيلة أو عشـيرة أن تتحكّم فيها أخرى دون مسوّغ مقنع مبنىّ على الإسـلام والإيمان. ولا غرو فمن يرفع شـعار الأمميّة الإسلاميّة، ويجعلها أساس قيام دولته، ومسوّغا يحكم به شعوبا وقبائل شتّى عليه أن يلتزم ذلك الشّعار المؤسّس فى الحكم والولايات والشّـأن العامّ. وبكلّ دقّة وإخلاص ودون هوادة. ولقد تكرّر التّجاوز لهذا المفهوم التّأسيسىّ المحورىّ فى كلّ الدّول الإسلاميّة الكبيرة. فمثلا: الأمويّة والعبّاسيّة والفاطميّة والأندلسـيّة والأيّوبيّة والمملوكيّة والعثمانيّة، كل تلك الدول اسـتأثر واستبد بها قوم أو قبيلة أو عشيرة أو ذرّيّة فى مخالفة صارخة وصريحة للشّعار المؤسّس ألا وهو تعاليم الإسلام فى إدارة الشّأن العامّ، ومن ثمّ وكما يقول المثل: «كلّ قطع الغصن الّذى يقف عليه» فسقط الجميع.

كما لا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر نظريّة العلّامة ابن خلدون (متوفّى عام ٨٠٨ هـ) فى العصبيّة والّتى بيّنها فى مقدّمته (٣٩)، وبرّر بها ما قام به معاوية من توريث لابنه يزيد. وموجز النّظريّة بعبارة بسيطة ما يلى: «القبيلة الكبيرة القويّة الشّكيمة وبأنصارها وأتباعها هى أســاس الملك القويّ المســتقرّ إذ تحميه من عدوان القبائل والقوى الأخرى». وبهذا برّر ابــن خلــدون التّوريث الّذى قام بــه معاوية، وجعله من حكمته وكياســته إلّا أنّ أحداث التّاريخ بيّنت غير ذلك فى حقّ معاوية وغيره عبر القرون، وأنّ قصّة العصبيّة لا تعدو – فى حقيقتها – أن تكون تحكّم القلّة فى الكثرة وبأسلحة ثلاث: القوّة العارية، والمال، والدّسّ للتّفرقة بين النّاس، وإنّها فضلا عن خطلها الأخلاقىّ أصلا – بغضّ النّظر عن سلوك الحاكم عدلا وغيره – تحمل فى جوفها بذرةَ فناء الدّولة الّتى قامت عليها وذلك بعد الدّورة الزّمنيّة والمجتمعيّة الّتى ذكرها العلامّة ابن خلدون.

إذ تســتنفد العصبيّــة – مع مــرور الزّمن – أقصــى قوّتها، وأقصــى أموالها، وأقصى ما اســتطاعت من دسّ وتفرقة، وينكشــف وجهها الحقّ للقاصى والدّانى من المحكومين.. فتسقط. وحبل الكذب قصير!

والشّــاهد أنّ العصبيّة لا تكون أساســا صحيحا لملك يطول ويستمرّ بل الأساس الصّحيح المتين هو اتّساق الدّولة مع قناعات المحكومين، وثقافتهم وما يرونه فى إدارة الشّأن العامّ.

فمثلا: إذا كان شــعار الدّولة الإسلام، ولقى ذلك القبول، والتّرحيب من جمهور النّاس ورســخ فى ثقافتهم وتصوّرهم فينبغى أن يتمّ الالتزام بالشّــعار وأدبيّاته وتعاليمه فى إدارة الشّأن العامّ، ومن ثمّ ينتج السّلامُ الاجتماعىّ، وتقوم الوحدة الدّاخليّة على أساس متين.

وكــذا إذا كان فكــر النّاس وثقافتهم قوميّة المنحى، ومن ثمّ شــعار الدّولة فينبغى اتّباع مــا يمليه هذا الفكر فى إدارة الدّولة وولاياتها، وذات الأمر ينطبق على أىّ تجمّع بشــرىّ ســواء قبيلة أو حزب أو حركة. أى ضرورة الاتّســاق مع قناعة وثقافة وفكر المحكومين فى أغلبهم ليس إلّا.

وفى النّتيجة: اســتبدال العصبيّة الّتى قــام عليها حكم الأقليّة فى حالة ابن خلدون، بعصبيّة الأكثريّة أى المحكومين فى مجملهم.

ولقــد جرّبت كثيرا عصبيّة الأغلبيّة المحكومة فــى نظم الحكم الدّيمقراطيّة القديم منها والحديث، ومنذ قرون وثبت جدواها وأثرها فى استقرار الدّول واستمرارها والأمثلة فى هذا

لا تحصى: بريطانيا – أمريكا – فرنسا – هولندا – بلجيكا – السّويد – الهند – ماليزيا – إندونيسيا – وحتّى تركيّا أخيرا.

وباعثنا على هذه الإطالة: أنّنا نرى الأمر مِفْصلا ومِحورا ركنيا فى الفكر السّياسىّ للعرب والمسلمين.

والسّؤال هو: هل نأخذ فى الولايات بعصبيّة الأقليّة المحظوظة الّتى تفرض نفسها على النّاس بشتّى الوسائل أم نجعلها شورى بين النّاس جميعا وما يقرّه أغلبهم، ومن ثمّ تجدّد الدّماء فى الحكم، ويقوى التّنافس فى الإحسان وخدمة النّاس ويذوى التّباغض والتّحاسد ويصبر النّاس على ما قد يروه من تجاوز الحاكم – فى نظرهم – إذ أنّ تغييره ممكن وقادم، ومبرمج مسبقا – إن لم يحظ بقبولهم – وعند موعده. ومن ثمّ لا حاجة بهم للخروج والثّورة.

كما لا يخفى أثر الفكر الخلدونىّ فى أوساط النّخب فى هذه النّاحية وغيرها. والعلاّمة ابن خلدون وضع منهج نقد التّاريخ والمرويات وأسس علم الاجتماع البشرىّ، وفضله العلمىّ كبير أقرّ به العالم كلّه. إلّا أنّ النّظريات فيها نظر، ولا عصمة لبشر غير الرّسل.

وعودة إلى موضوعنا: كما أنّ معاوية – بهذا الصّنيع – نقضَ ما اتّفق عليه مع الحسن ﷺ عند تنازله عن الحكم، ومبايعته له أن تكون الخلافة بعده شورى بين المسلمين.

فكان ما كان من اضطراب، وهيجان وثورات فى عهد يزيد، وجوهر الاعتراض: الاستبداد والاستئثار، وهجر الشّورى.

ثمّ كانت نكبة كربلاء ومقتل الحسين ﷺ، وكذا مصيبة الحرّة واستباحة المدينة وقتل الآلاف من الصّحابة والتّابعين فيها ! وكذا إحراق الكعبة ! وكلّ ذلك كى يستأثر يزيد وبنو أميّة بالحكم.

ثمّ نطرح أسئلة مهمّة لكى نتبيّن جوهر الأمر:

ما أصل الخلاف بين فئات الشّعب فى العهد الأموىّ، والّذى أفضى إلى هذه الدّماء الغزيرة؟ ألم يكونوا كلّهم مسلمين؟، ومن مذهب واحد؟! وهو مذهب محمّد ﷺ، ولم تظهر الفرق والمذاهب بعد. ألم يكونوا – حتّى – كلّهم عرب فى ذلك العهد المبكر؟! ألم يجاهدوا معا، وينتصروا معا، ويؤسّسوا دولة الإسلام الكبيرة معا؟!

وللباحث أن يدقّق. ولن يجد إلّا خلافا واحدا وحيدا وهو إجابة السّؤال التّالى: من يحقّ له أن يتولّى الشّأن العامّ وكيف؟ والاستبداد يجيب: بالقوّة والمال، والتآمر ودون اعتبار آخر،

يعقبه استئثار بالثّروات، وعزّ السّلطان، وجموع النّاس تقول: بالشّورى لاختيار الأصلح الّذى يعدل بين الخلق فى الأموال والأعمال، وهذا بيت القصيد.

ثمّ تولّى بعد ذلك وتلقائيًا معاوية الثّانى الشّاب الصّغير المريض، وفى حياة بعض كبار الصّحابة مثل عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزّبير. عجبا! كيف يولّى معاوية الثّانى، ولا يلتفت لهؤلاء! إلّا إنّه الملك والاستبداد به. وغنيمة الحكم برغم إرادة النّاس.

ثمّ تولّى مروان بن الحكم صاحب التّهمة الشّهيرة فى فتنة عثمان ﷺ، وتبعه أبناؤه وأحفاده، ومنهم من كان له بعض الصّلاح فى شخصه، ومنهم من تواتر القول بفسقه وقد كان فى النّاس من خيرة التّابعين الكثير.

وكلّ ذلك والمجتمع المسلم يأكل بعضه بعضا فى الصّراع بسبب هذه التّجاوزات والمصائب.

فمن طامع يتساءل: لمَ بنو أميّة؟ وما فضلهم علينا؟ حتّى يكون لهم هذا العزُّ والجاه، والمال والسلطان من دون النّاس.

ومنهم غيور على مصالح الأمّة ومستقبلها، وكيف لها أمّة العدل والشّورى أن تحكم بتلك الطريقة الغريبة عن روح الإسلام، ومنهم متضرّر بالظّلم الواقع، والاستئثار النّازل على رؤوس النّاس، ومنهم مدافع عن مصالح توهّمها أو ربطته بأهل السّلطان.

ثمّ دار الزّمان، واستوى الزّلزال وجاء وقته إذ خرجت العمائم والرّايات السّود تبشّر بإمام من بنى العبّاس وهى أولا وأخيرا إمامات ملك لا تسمن ولا تغنى من جوع. ولكنّ الضّحك على السّذّج والعوامّ. واستعمال الدّروشة فى نسختها المبكّرة بما فيها من خداع وتزييف لقيم الدّين وتعاليمه.

وعود على بدء: هو الملك الغنيمة الفريدة الّذى يهون فى سبيله والوصول إليه الوطن والدّين بل والآخرة أيضا.

ودشّن أئمّة بنى العبّاس عهدهم بسنّة الثّأر الجاهليّة حيث أقاموا المذابح للكبار والصّغار، والشّيوخ والنّساء من بنى أميّة وأتباعهم، ودون وازع من شرع أو دين أو خلق، وكلّ ذلك لتطهير المكان من رجس المنافسين – حتّى الأجنّة فى البطون – لتأمين الملك.

ولقد سبق لنا بيان فضل الخليفة الرّاشد الخامس – عمر بن عبد العزيز – والّذى دام حكمه عامين فقط وكانا عامَى خير ورشد وسلام وعدل، وانتعشت الأمّة بل الدّنيا كلّها

بنسيم تلك السّنين العذب الرّطب فعمّ السّلام فى الدّاخل والخارج، وفاضت الخزينة بالأموال بعد أن حفظتها عفّة الحاكم، وأثراها التّفرغُ للعمل دون الشّقاق والنّزاع، وعمّ الخير على الفقراء والمُعْوِزِيْنَ حتّى أنْ أمَرَ الخليفة بتزويج كلّ عازب محتاج من بيت المال.

هذا الخليفة العادل الّذى ورث الحكم عن ابن عمّه سليمان جاء عهده قدرا من الله ليرى النّاس فيما يَرَوا وزن العدل والحكمة، والعفّة فى تسيير شؤون الأمّة.

ونلاحظ أنّ من سبق عمر بن عبد العزيز ﷺ فى الحكم من بنى أميّة ليسوا أسوأ ممّن حكم بعده منهم.

لكن دعونا نرى حكم هذا الإمام العادل فيمن سبقه: لقد صادر معظم أملاكهم، وردّها لبيت المال إذ كانت أعطيات جزافيّة أعطاها الملوك لهم من الأموال العامّة وكان ما كان من حقدهم عليه، وتآمرهم لتنحيته أو قتله، ثم كان أن مات مسموما بدسائسهم.

ومن طريف الاستبداد أنّ سليمان بن عبد الملك وقد أوصى لعمر بن عبد العزيز ﷺ من بعده – وهى مكرمة تحسب له على أىّ حال – أوصى أيضا أن يخلف ابن عبد العزيز ﷺأخاه يزيد بن عبد الملك، وهو شابّ خفيف السّلوك يحبّ اللّهو والفراغ، والغناء والنّساء.

فانظر يا أخى القارئ كيف تتلاعب أهواء الاستبداد، وأخطبوطه الرّهيب بمصالح الأمّة ومصائرها حيث يتحكّم فى أمرها رجل من قبره، ويسمّى من يتولّاها، ومن يقرّر فى شأنها سلما وحربا وعدلا وجورا! ومن أدرى الموصى سليمان مدّة حكم بن عبد العزيز؟! وحتّى لو كانت نصف قرن. وتغيّر الزّمن والناس، وهب أنّ صاحبَه الثانى ضلّ وغوى مع مرور السّنين، أليس فى هذا تأسيس لفتنة محتملة ولو حتّى على مستوى عشيرة الحكم لاحقا!

وهل يرضى المسلمون أن يبقى مصير الأمّة معلّقا على الصّدف؟!

أن يأتى أمير عادل تقى كلّ مائة عام أو يزيد، ثم خلا ذلك من لا يُحسن ولا يقيم عدلا! أم علينا أن نعمل على ضبط مؤسّسة الحكم، وردّها إلى جادّة الصّواب دائما بالشّورى الملزمة.

الشّورى الّتى تختار الحاكم ابتداءً، والشّورى الّتى تراقبه وتزن أداءه وزن عدل، والشّورى الّتى تستبدله إن أساء، وتقرّه إن أحسن.

لقد حكم بنو أميّة وتجاوزوا شورى المسلمين إلى ملك أُسرى لم يكن صالحا فى معظم أيّامه – والمعيار والمقياس هنا هو ما يأمر به الإسلام دون أعذار أو اعتذار، وفى سلوك

مؤسّسة الحكم بالذّات – حكموا وتحكّموا وبنَوا القصور، وحازوا المزارع والضّياع والجوارى والأموال، ولكن هل دام هذا وذاك لأحد؟! لقد أغرق طوفان الثّورة العبّاسيّة هذا كلّه بعد تسعين عاما من الملك، وذهب الجاه، وذهبت الأموال وأهلها جميعا، وفى هذا عبرة لمن يعتبر والعاقبة للمتّقين!

وحيث إنّنا اتخذنا العهد الأموىّ نموذجا لما يفضى إليه الاستبداد من بلاء، فلا بدّ لنا أن نسرد بإيجاز شديد أسماء الفتن والقلاقل، والثّورات الّتى وقعت خلال ذلك العهد، وهو تسعين عاما لا غير ليرى القارئ الكريم فداحة المصاب، ويعرف عن علم أنّ الأمّة العربيّة الإسلاميّة بعبقريّتها، وَجَلَدِها الّتى بناها نور الإسلام تمكّنت – رغم كلّ الخطوب – أن تبقى أوّلا وتفتح الأمصار، وتبنى الحضارة رغم المعوّق الأساس ألا وهو الاستبداد، ومؤسّسته، وما أفضى إليه من فتن وتمزّق.

ولمن أراد التّفاصيل لما نحن بصدده نحيله إلى مراجع التّاريخ الأموىّ وهى كثيرة ومنها مثلا (٨)، (١٦) ، (١٧).

وأمّا الفتن الّتى وقعت فى عهد بنى أميّة فهى:

فى عهد معاوية فتنة سبّ علىّ ﷺ على المنابر[1]، ورد محبّيه بسبّ معاوية فى المجالس، وكذا الحرب مع الخوارج الّتى لم تهدأ قطّ.

وفى عهد يزيد نكبة كربلاء، ومقتل الحسين ﷺ، ونكبة الحرّه، واستباحة المدينة، ونكبة الكعبة، والاقتتال بين جند عبد الله بن الزبير، وجند مروان بن الحكم فى مصر والشّام، وبعد موت يزيد مباشرة حدثت فتنة أهل الرّأى، وفتنة خراسان، وفتنة الكوفة، وفتنة أهل البصرة ثم فتنة مكة الثّانية حيث قتل عبد الله بن الزبير وفتنة المختار الثّقفىّ فى الكوفة ثمّ هزيمته لعبيد الله بن زياد وقتله، ثمّ معركة مصعب بن الزّبير مع المختار حيث قتل الأخير، ثمّ فتنة عمرو الأشدق وخروجه على عبد الملك بن مروان، ثمّ معركة عبد الملك بن مروان مع مصعب بن الزّبير فى الكوفة حيث قتل الأخير، ثمّ سيطرة عبد الملك على البصرة وفتنة الخوارج المستمرّة وفتنة لبنان وخروج المردة والفتنة المستطيرة الخطيرة المستمرّة بين قيس ويمن وبلغت فى عهد عبد الملك وحده خمسة عشر موقعة كبيرة! وفتنة يزيد

(١) ورد ذلك – مثلا– فى كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية لمؤلفه محمد فريد– مكتبة الآداب– القاهرة– ٢٠٠٩م– ص ١٢،١١.

بن المهلب، ثمّ ثورة الخوارج مجدّدا بعد موت عمر بن عبد العزيز، ثمّ ثورة يزيد بن المهلّب مجدّدا، ثمّ معركة تأديب المهلّب الّتى قادها مسلمة بن عبد الملك، ثمّ ثورة عقفان الحرورىّ وفتنة زيد بن علىّ ومقتله أثناء حكم هشام، وفتنة الحارث بن سريج، وفتنة التّرك فى خراسان، وفتنة سلج بن بشر بالأندلس، ثمّ فى عهد يزيد بن الوليد الفتن الشّرسة بين يمن وقيس، وفتنة مروان بن محمد ثمّ ثورة مروان بن محمّد على حكم إبراهيم بن الوليد وتولّيه الحكم من بعده، ثمّ فى عهد مروان بن محمّد فتنة ثابت بن نعيم بحمص، ثمّ ثورة يزيد بن خالد القسرىّ، ثم تجدّد ثورة ثابت بن نعيم بفلسطين ثمّ ثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك بقنسرين، ثمّ ثورة الضحّاك بن قيس الشّيبانىّ، ثمّ ثورة المثنّى بن عمران العائدىّ، ثمّ ثورة أبى حمزة الخارجىّ واستيلائه على المدينة، ثمّ مقتله فيها، ثمّ ثورة العلويّين بالكوفة بزعامة مروان بن عبد الله الطّالبى ومقتله بيد أبى مسلم الخراسانىّ، ثمّ مقتل إبراهيم الإمام العبّاسىّ، ثمّ استيلاء أبى مسلم على الكوفة، ثمّ مطاردة العبّاسيّين لمروان بن محمّد حتّى قتلوه فى مصر!

وكلّ هذه الفتن والخروجات والمعارك والمقتلات، والمصائب والدّماء حدثت فى تسعين عاما أى من ٤١ هـ حتّى ١٣٢ هـ وهى الفتن الكبيرة فقط. وأما ما عداها فالاضطراب لم يتوقّف طيلة حكم بنى أميّة مطلقا.

وكلّ ذلك طبع الاستبداد، وما ينتجه من آفات ماحقة بالمجتمع ويحقّ لنا أن نسمّيه طاعون الشّعوب، ونرى أنّه لولا عظمة الرّسالة الخاتمة، وما طبعت عليه القلوب من تضحية فى سبيل الله، وصبر على المكاره وأملٍ فى الآخرة لكانت أمّة الإسلام أبيدت خلال حقبة بنى أميّة وحدها، أى فى قرن واحد من الزّمان. وأىّ أمّة ناشئة لم يتجاوز عمرها ١٣٠ عاما تستطيع أن تصمد لكلّ هذه الفتن والمحن والدّماء والاقتتال والتّدمير، وقد عاشت ١٠٠ عام من عمرها الصّغير لا يهدأ لها بال، ولا يتوقّف فى جنباتها قتال.

والجذر الأوّل لكلّ هذا الوبال هو إرادة شيطان الاستبداد أن تحكم الأمّة رغم إرادتها، وأن يولّى عليها مَن لا ترتضيه خلافا لأمر الله أن يكون أمرهم شورى بينهم.. فاعتبروا يا أولى الألباب!

روى المسعودىّ عن بعض شيوخ بنى أميّة عقب زوال ملكهم، لماذا كان زوال ملككم؟ فقال: «إنّا شغلنا بلذّاتنا عن تفقّد ما كان تفقّده يلزمنا، فظلمنا رعيّتنا، فيئسوا من إنصافنا،

وجـار عمّالنا على رعيّتنـا، فتمنّوا الرّاحة منّا، وتحومل على أهـل خراجنا، فجلو عنّا، وخربـت ضياعُنا، فخربت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنـا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أمورا دوننا أخفَوا علمها عنّا، وتأخّر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واسـتدعاهم عدوّنا فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجَزنا عنهم لقلّة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال ملكنا» (٨ – الجزء الرابع ص ١٧٧).

(١٥)

وبعد الدّولة الأمويّة

الحقّ – والعجيب فى آن واحد – أنّ الأمر فى محاوره الرئيسيّة قد سار على ذات المنوال الّذى كان عليه أيّام بنى أميّة، وفى كل الممالك التالية، بل زاد الحال سوءا مع السّنين.

افتتح العبّاسـيون عهدهم ببحر من دماء الثّأر من بنى أميّة وأنصارهم أينما كانوا، وتلك بداية فاجعة ليسـت من الإسـلام فى شـىء بل ولا أىّ من القيم الإنسانيّة. وقد كان بطلا هذه الهمجيّة هما أبا مسـلم الخراسانىّ، وعبد الله بن علىّ العبّاسىّ (عمّ الخليفة العبّاسىّ الأوّل أبى عبد الله السّفاح). فماذا كان مصير هاذين البطلين؟! لقد قتلهما المنصور – ثانى الخلفاء وبعد أن اسـتقرّ الملك – خوفا من المنافسـة والخروج، ثمّ لاحق وقتل أغلب أحفاد الحسن بن علىّ ﷺ أيضا لذات السبب.

ولو تقصيّنا لن نجد للاسـتبداد إلّا مذهبا واحدا وفى كلّ العصور، ألا وهو: السّـيطرة بالقـوّة الغاشمـة، وبالمال والتّآمر والخداع. وإلّا كيف إذا لقلّة من النّاس أن يسـيطروا على الملايين، ويكبتوهم إلّا بتلك الأسلحة ؟!

لقد زعم بنو العبّاس أنّهم يحكمون بحقّ القرابة من رسـول الله، وأنّ حقّهم الدّينىّ فى الحكم ثابت وقطعى، وهم يعلمون وشيوخهم جيّدا أنّ ما يدّعون ليس من الإسلام فى شىء.

يقول الدكتور محمّد أسـعد طلس فى كتابه تاريخ العرب (١٩ – الجزء الخامس – ص ١١) عمّا ابتدع العبّاسـيّون من نظم: «ومن أبرز هذه النّظم تلك النّزعة الكسرويّة السّاسانيّة الاستبداديّة، وما إليها من المراسم والتّقاليد الّتى كانت قد بدأت فى الظّهور أيّام بنى أميّة فإذا هى فى ظلّ الدّولة الجديدة تترعرع بقوّة وعزّة».

زخر عهد الخلافة العبّاسـيّة الأول (١٣٢ هـ ٢٢٧ هـ) بالفتن رغم كونه عصر الازدهار والقـوة وفتوة الدولـة، وكانت مدته ٩٥ عاما، وحكم خلاله ثمانية خلفاء وهم: السّـفّاح، المنصور، المهدى، الهادى، الرّشيد، الأمين، المأمون، المعتصم.

وكانت الفتن كلُّها تمرّدا على السّلطان، ورفضا لشرعيّة الحكم المزعومة، ونذكر فيما يلى أسماء الفتن الكبيرة المذكورة فى كتب التّاريخ، ومن أراد التّفاصيل يجدها فى المرجعين (١٠)، (١٩)، أو أىّ من كتب التّاريخ الخاصّة بالعهد العبّاسىّ: ثورات أنصار الأمويّين بالشّام، قتل أبى سلمة الخلّال، قتل باقى بنى أميّة، وكانوا فى ضيافة الخليفة السّفّاح، الفتك بأهل الشّام والبصرة ومكّة والمدينة من قبل عبد الله بن علىّ، وسليمان بن علىّ وداوود بن على إبّان حكم السّفّاح، ثمّ فتنة عبد الله بن علىّ وقتله، ثمّ فتنة أبى مسلم الخراسانى وقتله، ثم قتل أحفاد الحسن بن علىّ ﷺ وفتنة ومقتل محمّد النّفس الزّكيّة بمعركة فى المدينة، فتنة ومقتل إبراهيم أخى محمد النّفس الزّكيّة، وفتن الحركات الشّعوبيّة الّتى ظهرت بعد مقتل أبى مسلم الخراسانىّ (الخرميّة الرّاونديّة – حركة المقنّع الخرسانى...)، خروج الحسن بن محمّد ذى النّفس الزّكيّة، وكذا أخوه الحسين، مقتل الخليفة الهادى بتدبير أمّه الخيزران وذلك لعزمه عزل أخيه الرّشيد من ولاية العهد وتولّيه ابنه، فتنة يحيى بن عبد الله، فتنة إدريس بن عبد الله، فتنة موسى الكاظم، فتنة علىّ بن عيسى العبّاسىّ حيث قتله وأولاده الرّشيد، فتنة رافع بن قيس حيث استقل بخراسان، فتنة الخوارج بقيادة الوليد بن طريف وفتن الشام بين قيس ويمن، وفتنة اليمن بقيادة الهيثم بن عبد المجيد الهمذانىّ، فتنة إفريقيّة بقيادة عبدويه الأنبارىّ، ونكبة البرامكة، والفتنة المدمّرة بين الأمين وأخيه المأمون، خروج محمّد بن إبراهيم العلوىّ، وخروج إبراهيم بن موسى العلوىّ، ثورة الجند ببغداد على الحسن بن سهل، فتنة العراقيّين بسبب تولية المأمون العهد من بعده إلى علىّ بن موسى (علىّ الرّضا)، فتنة نصر بن شيث العقيلىّ، فتنة الزّطّ، فتنة بابك الخرمىّ، ثورة محمّد بن القاسم العلوىّ، ثورة الزّطّ الثانية، ثورة مازيار القارنىّ (ثورة خرّميه فارسيّة)، ثمّ فتنة بابك الخرمىّ مجدّدا واستمرت ٢٢ عاما وقتل فيها مئات الآلاف من المسلمين فى عهدى المأمون والمعتصم، وهى ثورة إباحيّة شيوعيّة فى المال والنّساء، ولتجديد دين الفرس (المزدكية)، وهدم الإسلام، ثمّ فتنة الأفشين.

وتلك ٣٣ ثلاث وثلاثون فتنة فى ٩٥ خمسة وتسعين عاما من الحكم! وبعضها استمرّ يحرق النّاس لسنينّ طويلة، فمثلا فتنة الخرمىّ استغرقت ٢٢ اثنتين وعشرين سنة، وكانت دعوة للكفر بالإسلام صراحة، ويقدّر الطّبرىّ عدد قتلى المسلمين فيها ٢٥٠٠٠٠ مائتان وخمسين ألف نفس، وأمّا المسعودىّ فيرى أن عددهم يتراوح بين ٥٠٠٠٠٠ خمسمائة ألف ومليون.

والخرميّـة فكـرة وثنيّـة، وردّةٌ إلى دين الفرس القديم إلّا أنّ أنصارهـا رأوا رأس الدّولة الّذى يزعم حماية الدّين وسياسة الدّنيا به يستأثر بالأموال والجوارى والقصور، ويقتل كلّ معارض لسلوكه. فألصقوا أعماله بالدّين وحنّقوا على مجمل المشهد!

برغم أنّ ذلك القرن هو عصر ازدهار الدّولة العبّاسيّة، وأزهى عصور الفقه والتّدوين والعلم والحضارة والرّقىّ.

ثـمّ لـو دقّقنا فى تلك الفتن جميعا واحدة واحدة لوجدنا الباعث لها أمرا واحدا ألا وهو رفض استبداد بنى العبّاس، واستئثارهم بالحكم، وكذا خروجا على ظلمهم.

ونتسـاءل أىّ عبقرىّ ذاك المجتمع الإسلامىّ الّذى استطاع أن يصنع حضارة ورقيًا فى ذلك المناخ المأفون، حيث القتل والتوّتر والصّراع، وغياب الاستقرار؟!

ثمّ إذا انتقلنا للحقب التّالية من عمر الدّولة العبّاسيّة فحالها فى مضمار الفتن والقلاقل أشـدّ بلاءً، إذ استقلّت كثير من الأقاليم، وعمّها النّزاع، واستولى أمراء الجند من بنى بويه والسّلاجقة والخوارزميّة على السّلطان، وأصبحت الخلافة شكلا لا روح فيه إلى أن سقطت على يد المغول عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م).

وتكرارا نرى أنّ من يطلب الملك بشـعار الإسـلام، ليحكم شـعوبا وأمما وقبائل شتى، حيث لا يربط هذا التّنوّع البشـرىّ رباطٌ اجتماعىٌّ يصنع الولاء فيه لسـلطة مركزيّة واحدة إلّا الإسلام، ثمّ يهجر تعاليم الإسلام فى الحكم إذ يختار الاستبداد على الشّورى، ليس له أن يتوقّع إلّا الثّورات المتواصلة، والخروج الذى لا ينتهى وهذا عين ما حصل.

لا ينبغى لأحد أن يقطع الغصنَ الّذى يقف عليه، ثمّ ينتظر الاستقرار على الشّجرة فى آن واحد.

لقـد بيّنّا فى أكثرَ من موضع أنّ سـرد التّاريخ ليـس قصدنا من الكتابة؛ إنّما خلاصات معبّرة عن نسـق عامّ، ومنحىً سـائدٍ. ولذا نكتفى فيما يخصّ الخواطر التّاريخيّة – وفضلا عمّـا تقدّم – أن نقدّم بعض الملاحق مأخوذة من مرجع متوازن وهو: «تاريخ العرب» لمؤلّفه الأسـتاذ الدّكتور/ محمّد أسعد طلس – أسـتاذ التّاريخ فى الجامعات السّورية، وهو مؤرّخ فاضل، وغيور على العرب والمسلمين.

ونثبـت تلـك الملاحق بنصّها كمـا وردت فى المرجع المذكور أعـلاه دون تصرّف، كما أنّ بعضها من المرجع المشـهور – موسـوعة التّاريخ الإسلامىّ للدكتور أحمد شلبى –أستاذ التّاريخ بالجامعات المصريّة، مع ملاحظات موجزة على كلّ منها:

الملحق الأوّل:

ويبدأ بوصف الوضع الاجتماعيّ في الدّولة العباسية في الحِقبة من ٣٢٠هـ - ٤٢٢هـ والّذى أسماه المؤلّف عصر الانحلال الثّانى، ثمّ يواصل واصفا حال الدّولة بشكل عامّ وحتّى سقوطها عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م).

إذ كانت تلك الفترة من أشدّ الحقب حرجا في تاريخ المسلمين لسببين: الصليّبين متوطنين في بلاد الشام، والمغول على الأبواب.

وبرغم تلك الظّروف الاستثنائيّة فإنّ الملحق يبيّن:

١ - فساد اجتماعيّ مستشرى على كلّ الصعدّ.

٢ - ضعف الخلافة التّام وتلاعب قادة الجند بها.

٣ - ترف الخليفة ومن حوله وطبقة المحظيين.

٤ - فقر مدقع لطبقة العلماء والمثقّفين (أبو حيّان التّوحيدىّ مثلا) فضلا عن عامّة النّاس.

٥ - تفشى الظلم والاستبداد وإهمال مصالح الناس.

٦ - انهيار سلطة السلاجقة التى بدأت قوية - جراء التنازع بين الأمراء على إرث الحكم وكذا مع الخوارزمية.

الملحق الثّانى:

عن عهد الإمارة في الدّولة الأموية بالأندلس (١٣٨ - ٣٠٠هـ)

والملاحظ في هذا الملحق أن الدّولة كانت في عنفوانها وشبابها الأوّل، إلّا إنّها لم تحظ بالاستقرار بل كانت الفترة دمويّة بامتياز، وتواصلت فيها الحروب بين الطّامعين في الإمارة وكذا من النّاس المنتفضين على ظلم الحاكم وقسوته.

وأصل الدّاء ليس في نوايا الرّجال وصلاحهم الشّخصىّ بالضّرورة، بل خلل بنيوىٌّ في الفلسفة الّتى عليها الحكم وهى (فردىّ - استبدادىّ - وراثىّ - قبلىّ - عربىّ حصرا) فكيف بهذه البنية أن تقنع خليط النّاس من عرب وبربر، والسّكّان الأصليّين، وكلّ منهم قبائل شتّى بالانتماء والولاء للدّولة والحكم، والأدهى والأمرّ على أساس الرّابطة الإسلاميّة الّتى لا تقرّ هذا النّمط من الحكم أصلا.

الملحق الثالث:

في خلفاء صلاح الدّين (مصر والشّام) (٥٨٩ – ٦٤٨هـ)

يبين هذا الملحق بإيجاز كيف تطوّرت أحوال الدّولة الأيوبيّة بعد موت المجاهد العظيم صلاح الدّين رحمه الله. وكيف اقتسم أخوته وأبناؤه الدّولة حتّى ضعفت، وسقطت في أشدّ الظّروف حرجا وهي أيّام الحروب الصّليبية.

وفي هذا عبرة إذ الخلل في فلسفة الحكم، وتصور القائمين عليه، والطّامحين إليه، والطّامعين فيه.

هل يملك الحاكمُ الوطنَ؟ أم يملك الوطنُ الحاكم؟

وهل الحاكم خادم للنّاس؟ أم هم خدم عنده وله؟

ولا نلوم بهذا فردا بعينه أو جماعة من النّاس بل نحذّر من فكر وتصوّر وسلوك؛

والأسئلة السّابقة وامتداداتها، ومفاعيل الإجابة الصّحيحة عليها من عدمها تمثّل فيصلا بين القوّة والاستقرار والاستمرار، وبين القلاقل والضّعف وذهاب الرّيح.

الملحق الرابع:

ما بين عهدي الأيوبيّين والمماليك (٦٠٠ – ٦٥٦هـ)

يظهر في هذا الملحق خواتيم الصّراع بين ورثة الحكم من الأيّوبيّين، ثم بينهم وبين المماليك لاقتسام دولة المسلمين في أحلك الظّروف أي: أثناء الغزو الصّليبيّ والمغولي.

الملحق الخامس:

عن الحالة الإداريّة في مصر والشّام بعد احتلالها من العثمانيّين مباشرة (١٥١٦ وما بعدها) يعطي الملحقُ فكرةً موجزة عن الحالة الإداريّة قبيل وبعد الاحتلال مباشرة، ويبيّن الفوضى، والفساد الدّاخليّ الشّامل. رغم أنّ السّلطنة العثمانيّة كانت على المستوى العسكريّ اتّجاه الخارج في أوج قوّتها.

ويبدو أنّ السّلاطين لم يروا أيّ أهميّة للعدل والإصلاح الدّاخليّ، بل الاعتماد المحض على قوّة العسكر لضرب أي تململ في الدّاخل. ولم يدركوا أهميّة رعاية الشّعب، والرّفق به، وتنمية إمكاناته على كلّ الصّعد، إذ هو يدفع الضّرائب الّتي يحتفي السّلطان بإكثارها، وكذا يمدّ الدّولة بالجنود إلى أن أفضى إهمال الشّعب واضطهاده – وهو مصدر القوّة – أن شحّت الأموال، وضعف الجند، ووصلت البلاد إلى ما وصلت إليه من ضياع وهوان.

الملحق السادس :

الحجاز فى القرن الثّانى عشر الهجرىّ الثّامن عشر الميلادىّ (١٠٨٣ – ١٢٠٢هـ) يبيّن الملحق كيف حكم «أشراف» مكّة الحجازَ خلال تلك الفترة وهى حوالى ١٢٠ سنة.

وأترك للقارئ الكريم أن يطّلع على هذا المرفق، ويقوّم الأمر بنفسه.

ونذكّر القارئ أنّ ذلك العبث حصل تحت سلطة الخليفة العثمانىّ حامى الدّين وسائس الدّنيا به، وفق مهمّته الشّرعيّة المشهورة، وكانت السّلطة ما زالت قويّة، ولكن لحكم الاستبداد أولويّاتُ: استمرار السّلطان، وجمع المال والتّرف.

ونحن نقرأ ونسمع الشّعارات الّتى تملأ البلاد أن نرجع إلى ماضينا، وعدل إسلامنا، ومن ثمّ خلط عدل الإسلام بالماضى على إطلاقه.

وللقارئ أن يرى بنفسه أىّ عدل كان فى ذلك الماضى.

كما أنّ الحال قبل وبعد الّذى يبيّنه المرفق كان على ذات المنوال أو قريبا منه، ولم تنتهِ الفوضى فى البقاع المقدّسة إلّا مع تولّى الملك عبد العزيز بن سعود رحمه الله، ولو كان لهذا الملك فضل توطيد الأمن والنّظام، والاستقرار فى الحجاز، ورفع عار الفوضى عن البقاع المقدّسة وفقط لكفاه ذلك وجعله فى مصافّ كبار المصلحين.

❑❑❑